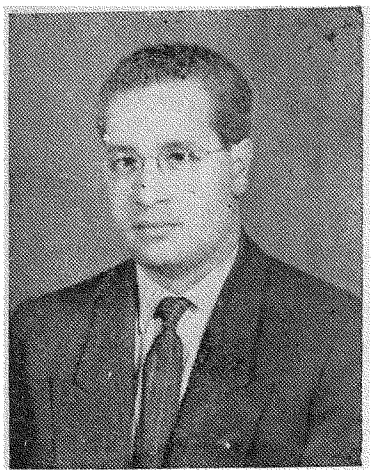

مناقشة عدد «الآداب» الممتاز

الثقافة الثورية .. والثورة الثقافية

بقلم محمود أمين العالم

بكل الشوق والتطلع ، عكفت على قراءة العدد الممتاز من « الآداب » ، الذي تتحرك مقالاته تحت شعار « نحو ثورة ثقافية عربية». واقول الحق ، انني ما انتهيت من قراءته حتى استقر في يقيني ان العدد بشكل عام لم يخطط تخطيطا سليما للاجابة على هذا السؤال الكبير ، او لعل التخطيط لم يتوفر له نتيجة لتخلف بعض الكتاب عن الوفاء بمسؤولياتهم ، كما ذكرت مقدمة « الآداب » . وبذات الصراحة الواجبة اقول كذلك ، ان الجانب التقييمي للواقع الثقافي في جوانبه الفكرية والادبية اساسا ، غلب في هذا العدد على الجانب التوجيهي لتحديد طريق الثورة الثقافية ، ومتطلباتها وعقباتها وآفاقها . وبرغم ما يشتمل عليه العدد من مقالات لامعة ، تتوهج بالموضوعية والعمق والجدية ، فان بعضها الآخر ، في محاولته ان يلمس موضوع الثورة الثقافية لمسا مباشرا ، كاد ان يضل الطريق نحو هذه الثورة ، بل كاد ان يجعل منها طريقا مسدودا .

فلندخل في صلب الموضوع .

ثورة ثقافية عربية !.. أجل .. ما اشد الحاجة اليها ، ما دمنا نناضل من اجل ثورة عربية شاملة، وما دمنا قد حققنا مستويات ومراحل من هذه الثورة ، في هذا البلد العربي او ذاك . ما احوجنا الى ثورة ثقافية تدعم الخطوات التي نحققها ، وتعمقها ، وتواصل الخطوات الى استكمال بقية اعباء العمل الثوري على المستوى العربي كله .

ولسنا في حاجة الى مقارنة او نمايز بين الحاجة الى ثورة ثقافية عربية ، وبين أي ثورة ثقافية اخرى ، صينية كانت او غير صينية . فكل ثورة ، تحقق تغييرا في الهياكل او الابنية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية عامة لمجتمعاتها ، تحتم بالضرورة استكمال هذا التغيير ، بتغيير كذلك في الهياكل او الابنية الثقافية لهذه المجتمعات . بغير هذا تظل الهياكل السياسية والاقتصادية الجديدة ، معرضة للانهيار ، فاقدة لقدرتها على الاستمرار ، بل لا يتحقق للثورة جوهرها ، وهو تغيير الانسان ونطويره وتجديده ، وتفجير طاقاته على المشاركة والابداع.

مع انتصار كل ثورة ، تبدأ الحاجة الملحة المباشرة ، الى استكمالها ودعمها وضمان استقرارها واستمرارها وتجددها ، بثورة ثقافية . هكذا كان الحال عندما انتصرت الثورة السوفيتية ، وهكذا الحال عندما انتصرت الثورات الاشتراكية في مختلف بلاد العالم ، بل هكذا الحال ، في كل منعطف جديد من حياة هذه الثورات المتجددة . ولا تشذ الثورة الصينية عن ذلك ، وان كانت لها ظروفها الخاصة التي لا مجال لتحليلها هنا .

خلاصة هذا كله ، ان الثورة الثقافية ، هي تغيير وتجديد للهياكل والابنية الثقافية للمجتمع ، من تصورات ، واذواق وعادات سلوكية ، وقيم ، بما يتلاءم واحتياجات التقدم ، وبما يحقق للانسان تكامله الحضاري وفاعليته الخلاقة .

وبديهي ، ان الثورة الثقافية هي امتداد وتطوير لافضل ما في الانسان ، تكوينا وتراثا ، انها ليست انقطاعا عن تراث الماضي ، او انفلاتا عن حقيقة الانسان ، بل هي تنمية لكنوز العقول والقلوب والقدرات الانسانية عامة . واذا لمسنا في الثورة الثقافية الصينية محاولات متطرفة للانقطاع عن التراث الماضي للانسانية ، فليست هذه هي سمة الثورة الثقافية ، بل لعلها ان تكون بعض الظواهر العارضة المنحرفة عن مجراها الجوهري ، بسوء الفهم او سوء التطبيق او سوء التفسير .

ونعود الى سؤالنا الاول .. ما هو طريق الثورة الثقافية في ثورتنا العربية ؟..

طريقها في تقديري محدود بظروف هذه الثورة .

فبرغم أن هناك ثورة عربية واحدة ، تستهدف في النهاية تحقيق وحدتها القومية الشاملة ، الا ان الثورة العربية في واقعها تتخذ مظاهر متنوعة ...

***

١ ـ فالثورة العربية ما تزال في بعض البلاد العربية نضالا سياسيا وفكريا واجتماعيا من اجل السيطرة على جهاز الدولة ، وتحقيق التغيير الثوري في مجتمعات ما تزال تسود فيها النظم الاقطاعية ، او البورجوازية ، او تتحقق في ارضها بسيطرة استعمارية غير مباشرة او يقوم على ارضها احتلال عسكري استيطاني استعماري صهيوني مباشر .

٢ ـ على ان الثورة العربية قد نجحت سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ، في دول عربية اخرى فتحررت من سيطرة الاستعمار وتحررت من النظام الاقطاعي او كادت ، وتحررت او كادت من النظام الرأسمالي ، واقامت دولتها التقدمية ، واخذت تشق طريقها نحو التطور الاشتراكي، مهما اختلفنا في تقييم مستوى هذا التطور ومداه وعمقه ، في هذا البلد او ذاك .

فأين الثورة الثقافية في هذه الاوضاع المختلفة المتنوعة للثورة العربية ؟

انا اعرف منذ البداية ، ان البعض سيسارع فيتهمني باقليميـــة التفكير . سيقول : انك تمزق النضال الثوري العربي ، طبقـا لاوضاع اقليمية قاصرة مرفوضة . وتمهد بهذا لتمزيق الثورة الثقافية العربيـة نفسها وفقا لذلك .

ان ما نسميه دولا عربية متحررة انما هي كيانات مكرسة للانقسام القومي ، وان كل ثورة اجتماعية لا تتم في اطـــار عمل قومي عربـي موحد ، هي تكريس كذلك للانقسام والاقليمية . وكل ثورة ثقافية تراعي هذه الكيانات ، انما هي بدورها ثقافية مضادة .

لست افتعل هذه التهم ، وانما استخلصها من بعض ما جاء فـي العدد السابق من « الآداب » في مقالتي الدكتور عصمت سيف الدولة، والاستاذ محيي الدين صبحي بالذات .

ولكن مع ادراكي لهذا ، ارجو ان يتسع صدرهما ويتسع صدر من يشايعهما الرأي ، حتى استكمل وجهة نظري .

اعود فاتساءل .. ما هو طريق الثورة الثقافية العربية في هـــذا التنوع في اوضاع النضال العربي ، وواقع ملابساته المختلفة ؟

اما بالنسبة للاوضاع الاولى ، ففـي تقديري ان قضيتها ليست قضية ثورة ثقافية بالمعنى الدقيق وانما هي قضية ثقافة ثورية . هـي قضية وحدة فكر ثوري ، ووضوحه وفاعليته ، هـي قضيـة تخطيط للاحتياجات الثقافية لمعارك التحرير والثورة الاجتماعية في كل بلـد عربي ، في ضوء استراتيجية الثورة العربية الشاملة ، حقا ، هنـاك بالضرورة ، او ينبغي ان يكون هناك ، استراتيجية واحدة ، ثورة عربية شاملة ، ولكن هذا لا يتنافى مع ضرورة ان يكون لكل ثورة في كل بلـد عربي برنامجها الثوري النوعي الذي يتحرك في اطار هذه الاستراتيجية الشاملة . ان القضية في هذه البلاد العربية التي لم يتحقق لها بعـد التحرر الوطني والتقدم الاجتماعي ، ولم يتحقق لقوى الثورة فيهـا ان تسيطر على جهاز دولتها ، اقول ، ان القضية في هذه البلاد ، هي قضية التنظيم الثوري ، المسلح بالفكر العلمي ، الممتزج باغلبية حركة الجماهير العاملة ، القادر على توجيه حركتها وقيادتها .

قضية الثورة الثقافية ، ـ بمعناها الذي عرضنا له من قبل ـ غير واردة في هذه البلاد ، قل ان تتحقـق السيطرة الثورية على جهـاز الدولة ، وتغيير علاقات الانتاج والهياكل السياسية والاقتصادية عامة لقوى الثورة التحررية والاجتماعية التي هي بالضرورة قوى قوميـة كذلك . قبل هذا لا سبيل الى ثورة ثقافية . فـلا سبيـل الى تغيير الهياكل الثقافية فـي المجتمع ، دون تغيير سابق لهياكلـه السياسية والاقتصادية ، ولنضرب امثلة للتوضيح . هل من الممكن مثلا تغيير برامج التعليم في مجتمع عربي تسيطر عليه قوى الرجعية والاستعمار ، بحيث يصبح برنامجا ديمقراطيا معاديا للاقطاع والرأسماليـة والاستعمـار والتجزئة القومية ؟ هل يمكن مثلا توجيه وسائل الاتصال الجماهيري من صحافة واذاعة وتلفزيون وسينما ومسرح في هـذا المجتمع توجيهـا يتناقض وطبيعة السلطة السياسية القائمة ، وعلاقات الانتاج السائدة ، والمصالح الاجتماعية المسيطرة ؟ لا سبيل الى ذلك الا بتغيير السلطـة السياسية ، التي تمكن من تغيير الهياكل السياسية والاقتصادية ، في هذا المجتمع ، وتمكن بهذا من التغيير الثقافي كذلك . على ان هـذا لا يتنافى مع احتدام الصراع الفكري والثقافي عامة في هذا المجتمع في مختلف هياكله وابنيته من اجل حشد الجماهير ضد السلطة . ولا شك انه في هذا الصراع تكمن نواة الثورة الثقافية ، التي تصبح ممكنة بعد انتصار الثورة نفسها .

ولهذا ، ففي مثل هذه البلاد ، تبرز الحاجة الى ثقافة ثورية لا الى ثورة ثقافية . وتصبح هذه الثقافة الثورية نضالا ثوريا مـن اجل بلورة السلاح الفكري في ايدي الجماهير من اجل انتصار سلطـة الثورة .

تصبح الثقافة الثورية نضالا من اجل تنقية العمل الثوري من ضبـاب المثاليات ، وشطحات المغامرات ، وارسائه على قواعد موضوعية مـن التحليل المحدد ، للواقع المحدد ، او شحذ الحركة الجماهيرية بالوعي العلمي الصحيح ، وتنمية حركتها والتعجيل بها لتحقيق اهداف العمل الثوري .

وفي هذا تتذرع الثقافة الثوريـة بمختلف الوسائل والاساليب والمستويات والمنابـر ، بحسب الملابسات الخاصة ، وعلاقات القـوى الاجتماعية في هذا البلد او ذاك ، فتضع مخططاتها العمليـة للاستفادة من كل الثغرات والامكانيات العارضة وغيـر العارضة ، الذاتيـة والموضوعية ، للوصول بافكارها وقيمها الى الجماهير ، وتنمية طاقـة العمل الثوري الاجتماعي حتى بلغ مرحلـة النضج والانتصار ، عبـر مراحل متصاعدة من الاحتجاج والرفض والمقاومة والتنوير ومجاهدات التطوير والتغيير .

على ان شرط النجاح في هذا كله ، هو وضوح الفكـر الثوري وتحديد الاهداف الثورية ، فضلا عن وحدة الطلائع المناضلة من اجلهـا وعيا وتنظيما .

وهنا تيار سؤال كبير ... كيف السبيل الى هذا الوضوح وهذا التحديد وهذه الوحدة ؟ انك تكثر في حديثك مـن الاستعانة بكلمات الثورية والموضوعية والعلمية ، الا تعرف انها اصبحت رطانات يتداولها المثقفون جميعا ، والمناضلون جميعا على اختلاف آرائهم وتناقض مواقفهم، وتنوع مناهجهم ؟ فكيف السبيل الى الوضوح والتحديد والوحدة التي تدعو اليها ؟ والحق ، انها المشكلة من مشاكلنا الثقافية والنضالية معا. ولكننا على اية حال لن نجد حلا لها فيما اشار اليـه الاستاذ مطـاع صفدي في مقاله في العدد الماضي من « الآداب » بالانتقال من الكلمات الى الاشياء ، انها دعوة برجماتية معادية للفكر النظري ، بل تكاد تكـون دعوة فوضوية متسترة ، لا تختلف في شيء عـن الدعوة الفوضويـة الجهيرة التي يدعونا اليها الاستاذ محيي الدين صبحي في مقاله فـي العدد نفسه !

على ان هذا حوار سابق لاوانه .

ونعود الى السؤال الكبير . ما العمل ازاء هذا التخبط والتداخل في استخدام المصطلحات الثورية ؟ لا سبيل غيـر الصراع الفكري . الصراع الفكري ، لا الصراع الجسدي ، ولا الصراع الفكري على موائد المثقفين المتغربين ، بل الصراع الفكري خلال النضال العملي وبالنضال العملي . أي اختبار الفكـرة بالنضال بيـن الجماهيـر وبالجماهيـر ، والتصدي لمشكلات الواقع الحي . لا سبيل غير البحث عـن استكمال للعمل المشترك ، حول الحد الادنى من الاتفاقـات النظرية او الفكريـة المشتركة من اجل توسيع رقعة الاتفاق المشترك ، خلال توسيع رقعـة النضال المشترك .

ليس اخطر على الفكر والنضال معا ، من مقولة « الانـا وحدي » عندما تصبح خطة عمل ، لا قناعة فكر فحسب ! اذا كنت اعتقد انـنـي الصحيح فكرا ونضالا ، فلابحث عن اشكال واساليب لاقنـاع غيري ، ما دام يتحرك ـ رغم اختلافي معه ، واختلافه معي ـ فـي اطار هدف مشترك او متقارب . فلابحث عن هذا لا بالفكر المجرد وحـده ، بـل بالنضال المشترك في مواجهة المشاكل ، ومـا اكثرها فـي مجتمعاتنا العربية .

نضال مشترك ، من اجل مزيد من الوحدة والبلورة الفكرية ، نترفع بالمزيد من الانتصار النضالي .

هناك مثل شعبي صعيدي يقول « الحنك مـا بيكسر حنك » اي باختصار ، حوار الافواه ، وحوار الافكار المجردة ، لا يقنع احـدا ولا يحسم قضية . ولكن الحوار خلال العمل الواقعي المشترك ، فـي اي

مستوى من مستوياته ، كفيل بأن ينمي الافكار الصحيحة ، ويقنع بها ، ويكسب لها ارضا جماهيرية ، وارضا نضالية .

الاتفاق حول الحد الادنى من الافكار والاهداف المشتركة ، وخوض المعارك العملية من اجل تحقيقها ، هو السبيل لبلورة فكر عربي يساري نضالي موحد .

ليس حلا وسطا ، ليس برجمانية ، ولكنه ايمان بنضالية الفكرة النظرية الصائبة ، والثقة في قدرتها بالعمل النشط على الانتصار .

حقا ، هناك من يرفضون العمل الثوري المشترك ، احساسا منهم بعجز افكارهم عن التصدي لمشاكل الواقع ، وحرصا على سلطة التعالي والتفرد مهما كانت جوفاء عاجزة .

حتى هؤلاء ، لا ينبغي ان يكون الصراع معهم صراعا ذاتيا ، يكتفي بتحليل نفسياتهم ونواياهم ، بل يكون الصراع معهم ، تخطيطا ذكيا بالمواقف العملية ، والفضح الفكري والادراك الموضوعي لقوانين الواقع ، وتنمية القدرة الذاتية للجماهير وحسن قيادتها وخدمتها .

عذرا .. لقد اطلت ، ولكن حسبي ان اقول ملخصا هذا كله ، بأن وحدة الفكر المناضل لا الفكر الثرثار ، والنجاح في اقامة سلطته الثورية ، هي الشرط الحاسم لتحقيق الثورة الثقافية الحقيقية في هذا البلد او ذاك من بلادنا العربية التي لم تتحقق فيها بعد سلطة ثورية .

اما بالنسبة للبلاد العربية التي تحققت فيها بالفعل سلطة ثورية او تقدمية بشكل عام وحيث نحقق فيها ـ بمستوى او بآخر ـ تغيير في الهياكل السياسية والاقتصادية للمجتمع ، فألغيت الملكية الفردية للوسائل الاساسية للانتاج ، وخططت للتنمية الاقتصادية واختارت لنفسها موقفا حاسما من الاستعمار والصهيونية والتخلف ، فان الثورة الثقافية فيها تتخذ بالضرورة بعدا متميزا .

ولسنا نستطيع ان ننكر ان تغيير الهياكل السياسية والاقتصادية في هذه البلاد ، قد غيرت ـ ولو بشكل تلقائي ـ جوانب من الهياكل الثقافية لمجتمعاتها ، من بعض التصورات العامة ، وبعض القيم السائدة ، وبعض العادات القديمة . التصورات والقيم والاذواق والعادات ، في مجتمع القرية المصرية اليوم ، غير التصورات والقيم والاذواق والعادات في مجتمع ما قبل الثورة . وكذلك الشأن في مجتمعات المؤسسات الصناعية والانتاجية والثقافية والسياسية بشكل عام . بل انعكس هذا في كثير من اوجه التشريع وفي بعض مظاهر السلوك الاجتماعي . ولكننا لا نستطيع ان ننكر ان بقايا التصورات والقيم والاذواق والعادات المتخلفة التي تنتسب الى مجتمع ما قبل الثورة ، ما تزال تتنفس وتعيش وتسيطر في القرية والمدينة على السواء ، وما تزال تمثل تخلفا في حركة التحول الثوري في المجتمع ، وخللا في الهياكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية عامة . ولسنا نعدو الصواب ان قلنا انها كانت مصدرا من مصادر هزيمة يونيو عام ١٩٦٧ .

ولهذا تلح الضرورة على التعجيل بالثورة الثقافية في البلاد العربية التي تحققت فيها ثورة التحرر والتقدم ، دعما لهذه الثورة وتعميقا لها وتطويرا بل انجازا لاهدافها الجوهرية ... تحرير الانسان العربي واقعا وحياة وفكرا ووجدانا وسلوكا .

وليس ادل على مدى تخلف الثورة الثقافية في هذه البلاد من اننا عند الحديث عن مظاهر هذا التخلف ، نبدأ من جرح غائر في مجتمعاتها هو جرح الامية الابجدية . ما تزال الامية الابجدية في هذه المجتمعات تشكل نسبة ترتفع الى ٦٠٪ بل الى ٧٠٪ بل الى ٨٠٪ من سكان هذه البلاد المتحررة المتقدمة السلطة !

ومن هذا الجرح الغائر في جبين كل مثقف عربي ، نبدأ من اول السلم في مظاهر التخلف الثقافي ، لننتقل الى بقية المظاهر .

ـ ما تزال التصورات الغيبية والتواكلية والاسطورية وقيم الذاتية والنفعية واللامبالاة تسود في مستويات وقطاعات مختلفة من المجتمع ، لم تمسسها روح الفكر العلمي الموضوعي .

وما تزال التصورات والقيم والاذواق والعادات الاقطاعية والرأسمالية تعشش وتتنفس وتسود .

ـ ما يزال التعليم العام والتعليم الجامعي ، تسوده المفاهيم المتناقضة مع مفاهيم ، التحرر والتقدم . وما يزال للمدارس الرأسمالية بنظرياتها الظاهرة والخافية سلطان على الكتاب والنهج والاسلوب والمدرس ايضا .

ـ ما تزال وسائل الاتصال الجماهيري Mass Media من اذاعة، وتليفزيون وسينما ومسرح ، ادوات لبث قيم التفسخ واللامبالاة والذاتية والخدر وروح المغامرة الفردية .

ـ ما تزال الكلمة المكتوبة ، والصورة المنشورة ، مركبا يحمل الى عقول الجماهير ووجداناتهم سموم الفكر الرجعي ، او دوار البلبلة والضياع .

ـ ما يزال الهيكل التشريعي السائد في هذه المجتمعات متخلفا عن احتياجات التقدم فيها ، متناقضا مع هياكلها السياسية والاقتصادية ، معرقلا لنموها .

ـ ما تزال للفكر الاستعماري الصريح او المتستر وما تزال لقيمه ، ابوابه ونوافذه ومنابره في مختلف المؤسسات العلمية والثقافية والاجتماعية عامة .

ـ ما يزال التمييع الفكري ، والجمود السلفي طرفين يتمزق بينهما الحاح الحاجة الى الوضوح الفكري والحسم النظري في كثير من القضايا الوطنية والاجتماعية والقوميه .

ما اريد ان اواصل احصاء مظاهر التخلف الثقافي في هذه المجتمعات ، الذي يتناقض ويتجانف مع احتياجات هياكلها السياسية والاقتصادية والاجتماعية عامة ، حسبي هذه الامثلة ، وحسبي التفصيل الدقيق العميق والتحليل القيم لها ، الذي قدمه الدكتور حسن حنفي في مقاله في العدد الماضي من « الآداب » .

الحقيقة ، انني كنت اتمنى ان يكون مدار الدراسات في العدد الماضي من الآداب حول هذه الظواهر ، تحليلا لها ، وتوجيها صائبا يستجيب لقاء ذلك العدد : « نحو ثورة ثقافية عربية » .

على اني اقول باختصار انه لا سبيل الى تحقيق ثورة ثقافية عربية في البلاد التي نجحت فيها الثورات التحررية والتقدمية ، ايا كان مستوى هذا النجاح ومداه وعمقه ، الا بالقضاء على الامية الابجدية، والامية الثقافية ، الا باجتثاث بقايا التصورات والقيم والاذواق والعادات المتخلفة التي تنتسب الى المجتمعات الاقطاعية والرأسمالية والاستعمارية ، والا باشاعة الفكر العلمي الموضوعي بين الجماهير ، وتثوير برامج الدراسة في التعليم العام والجامعي ، وتخطيط العمل الثقافي في الكتاب والسينما والمسرح ومختلف وسائل الاتصال الجماهيري تخطيطا واعيا ، ثم ـ وهذا امر بالغ الاهمية ـ اطلاق قوى العمل والمشاركة الديمقراطية لجماهير الشعب في مختلف مجالات النشاط السياسي والاجتماعي . فلا شيء مثل المشاركة الجماهيرية الديمقراطية سبيل للتثقيف الثوري والتغيير الثقافي الخلاق .

واصل اخيرا الى سؤال اخير . هل ثمة انفصال بين الثقافة الثورية في البلاد العربية التي ما تزال تناضل شعوبها من اجل سلطتها الثورية ، وبين الثورة الثقافية في البلاد العربية التي تحققت بها

سلطة ثورية . لا انفصال في الحقيقة .

قد يكون هناك انفصال في الشكل ، في الاسلوب ، في المدى ، في بعض الاهداف العملية المباشرة هنا وهناك . ولكن كل انتصار للفكر الثقافي الثوري ، او كل نجاح في تحقيق ثورة ثقافية .. هو انتصار للثورة العربية الشاملة .

فالعمل الثقافي الثوري ذو طبيعة ديناميكية ، لا تحده اسوار مكانية في وطننا العربي ، وانما يمتد بفاعليته عبر الاسوار والحدود والمستويات ، يتلاقى ويتعانق ويلهم ويدفع ويفعل .

ولكن هناك امور اخرى يمكن ان تتم بالتخطيط والتنظيم بين مختلف المثقفين الثوريين العرب رغم اختلاف الاوضاع الثورية العربية وتنوع المسؤوليات . هناك اشكال من العمل المشترك عبر الانظمة الاجتماعية المختلفة ، يمكن ان يتيح تنمية الثقافة الثورية من ناحية ، والثورة الثقافية من ناحية اخرى .

هناك مثلا امكانية التخطيط المشترك في مجال الكتاب العربي ، ما اشد التضارب في سوق الكتاب العربي ، لقد كاد الربح ان يكون محركه ودافعه ، تأليفا وترجمة ، دون مراعاة لضرورات ، او تخطيط لسد احتياجات . لماذا لا يتم بين دور النشر العربية التقدمية تخطيط في التأليف والترجمة ؟

ما اشد حاجة المكتبة العربية الى مثل هذه الخطة التي تتكاتف على تحقيقها دور النشر العربية ، والكفاءات الثقافية العربية ، وما اكثرها ، وما اغناها وما اخصبها واقدرها .

ما اشد حاجة المكتبة العربية الى خطة لتحقيق التراث العربي . فلا يترك لزحمة المتاجرة والمقامرة والاجتهاد الفردي ، بل يصبح محلا للتنقية والتصفية وحسن التوجيه فضلا عن التيسير للجماهير .

ما اكثر ما يقال عن امكانيات الاعباء الثقافية الثورية المشتركة ، التي يمكن ان يضطلع بها المثقفون الثوريون العرب ، لا في مجال الكتاب فحسب ، بل في مجال السينما والمسرح والتلفزيون والصحافة والموسيقى والفن التشكيلي دعما للثقافة الثورية والثورة الثقافية في الوطن العربي بملابساته المختلفة ، ووقوفا بحسم في وجه ثقافات التحلل والتفسخ والبلبلة ، والمساهمة في الثورة العربية فكرا ووجدانا .

هناك بغير شك جهود تتم جديرة بالتقدير ، ولكنها ما تزال مبعثرة مشتتة ، وهناك بغير شك صراعات وخلافات . ومن قال ان هناك نضالا بغير صراعات وخلافات . المهم ان نبحث عن افضل الاساليب وانجعها لتوحيد الجهود ، وتوجيه الصراعات ، لخدمة النضال الثوري العربي الموحد .

ولا ازعم هنا ، انني اضع برنامج عمل للمثقفين الثوريين العرب ، وانما اطرق ابوابا لعل بعضها مطروق بالفعل ، وان تكن الحاجة ملحة الى مزيد من التلاقي والتلاحم والتنسيق والتخطيط ، والعمل المشترك المنظم . ما احوجنا في هذه المرحلة الى ما يمكن ان نسميه بالفكر العلمي العملي ، الفكر النضالي ، الفكر الملتحم بالعمل ، بالجماهير ، المقتحم للمشاكل العملية ، لا المحلق فوق المشاكل يحلها – بل يزيدها تعقيدا – بلوك الكلمات الكبيرة المجردة المتعالية .

مرة اخرى .. عذرا لهذه الاطالة المسرفة فيما اردت ان يكون مجرد مدخل الى مناقشة العدد الماضي من « الآداب » عزائي ان هذا المدخل الذي طال قد يتيح لي تركيز المناقشة ووضوح منطقها العام .

★★★

سأقصر مناقشتي على مقالات هذا العدد ، رغم ما فيه من بعض صفحات من الابداع الشعري والقصصي ، غاية في الجودة والامتاع حقا.

واعترف في البداية انني لن اخوض في التفاصيل وانما سأكتفي بتلمس ما هو جوهري فحسب . وسأقسم المقالات اقساما ثلاثة :

الاول : هو القسم النظري الخالص الذي يتعرض لمضمون الثورة الثقافية ومنهجها ، ويضم مقالات الدكتور عصمت سيف الدولة ، والاستاذ محيي الدين صبحي ، والاستاذ مطاع صفدي والدكتور حسن حنفي والاستاذ جورج طرابيشي .

الثاني : هو القسم المتعلق بتناول التراث القديم الفكري والديني. ويضم مقالتي الاستاذ حسين مروة والدكتور محمد النويهي .

الثالث : هو القسم الذي يتناول الادب من شعر ورواية وقصة ومسرحية ، ويضم مقالات الاساتذة احسان عباس وسامي خشبة وفؤاد دواره وصبري حافظ ومحمد بركات ومحمد دكروب .

وابدأ بالقسم الاول : مقال الدكتور عصمت سيف الدولة او محاضرته بتعبير ادق ، هي امتداد مركز لوجهة نظر طالما عرضها في كتب سابقة له . اننا نتفق معه فيما تتضمنه من ايمان بوحدة استراتيجية الثورة العربية . ولكننا نختلف معه في السبيل العملي لانجاز هذه الاستراتيجية . ذلك انه باسم الوحدة القومية الشاملة كنضال وهدف ، يكاد يسد السبيل العملي دون انجازها ، بتبنيه مفهوما اطلاقيا مثاليا للفعل الثوري ، يدفع به فكريا وعمليا الى زقاق مقفل ، بل يدفع بالنضال الثوري تحت رايته الى نتائج مجهضة للهدف الثوري نفسه . ان دولة الوحدة عنده هي شرط النجاح في كل معركة عربية . بدونها يكاد يصبح كل انتصار عربي تحريري هزيمة قومية ! فالدولة العربية التي تحررت واستقلت ليست الا مجرد كيان يسد طريق الوحدة القومية الشاملة . وهكذا يصبح مفهوم الاستقلال عنده مرادفا لمفهوم العزلة الاقليمية . ويمتد هذا الى قضية النضال العربي الفلسطيني ، فيؤكد ان فلسطين لن تتحرر في غيبة دولة الوحدة ، بل يصل الى القول « بأنه لا يجوز ان نتنازل او نتراجع عن هدف الوحدة العربية من اجل النصر التكتيكي في اي معركة ولو كانت معركة تحرير فلسطين » ولهذا يعارض بشدة دعوة الثوار الفلسطينيين الى الدولة الديمقراطية تتعايش في ظلها الاديان الثلاثة ، وينتهي مقاله او محاضرته بما يشبه الدعوة الى القاء اليهود في البحر ، فضلا عما يتضمن مقاله من دعوة الى سن صراع لاسقاط دول الكيانات العربية المستقلة ، لا يميز بين دولة متحررة ، ودولة رجعية ! وهكذا ينحرف بنضالنا العربي الثوري ضد الاستعمار والصهيونية والرجعية الى ما يشبه الحرب بين الدول العربية تحت راية قومية ضيقة جامدة تشوبها نعرة عنصرية .

وليس ثمة خلاف حول وحدة استراتيجية الثورة العربية ، وهدفها التوحيدي القومي الشامل . ولكننا لن نستطيع ان نثب الحواجز لتحقيق الهدف التاريخي المنشود بضربة واحدة . وانما يتحقق هذا بالتحليل الموضوعي المحدد ، للظروف الموضوعية المحددة والمتنوعة ، والنضال المحدد والمتنوع في اطار الاستراتيجية الشاملة ، من اجل السيطرة على الظروف الموضوعية ، وانضاج الظروف الذاتية للواقع في اوضاعه المختلفة المتنوعة . ما اسهل لعبة الوثوب الفكري عبر الحواجز الموضوعية . ولكن ما اصعب الاعتراف بها والنضال الثوري للسيطرة على قوانينها والقضاء عليها .

ان الدول العربية المستقلة المتحررة المتقدمة ليست عقبات في طريق الوحدة بل خطوات – موضوعيا – في طريق الوحدة . وكل دعم وتعميق للتحرر والتقدم في بلد عربي ، هو انتصار لقضية الوحدة القومية الشاملة . وقيام الدولة الديمقراطية في فلسطين تحقيق لاخطر مرحلة ثورية في استراتيجية الثورة العربية الواحدة في طريق الوحدة القومية الشاملة . حقا ، ان معارك التحرر والتقدم في البلاد العربية لا تتم معزولة عن بعضها البعض ، ولا بالتناقض بين بعضها البعض ، بل شرط نجاحها وتقدمها ، هو وحدة النضال العربي .

التتمة على الصفحة – ٨١ –

مناقشة عدد الآداب الممتاز

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٦ ـ

تحرير فلسطين لن يتم الا بوحدة قوى الثورة العربية ، بحشد كل قوى الامة العربية وتعبئته في النضال الفلسطيني .

على ان هناك فرقا بين هذا وبين القول بدولة الوحدة شرطا لتحرير فلسطين ، او هدفا مباشرا لاستراتيجية تحرير فلسطين . وحدة النضال العربي الثوري خطوة ضرورية واساسية في طريق الوحدة القومية الشاملة . وانتصار النضال العربي في هذه البلد العربي او ذاك ، في تحقيق اهدافه التحريرية والتقدمية خطوة ضرورية واساسية كذلك في طريق الوحدة القومية الشاملة ، وتحقيق الوحدة القومية بين مجموعة من الدول العربية خطوة ضرورية واساسية كذلك في طريق الهدف التوحيدي الشامل . وكل هذه الخطوات هي تعبير عن وحدة النضال العربي الثوري اساس الانتصار في أي معركة عربية ، واساس الانتصار كذلك في الهدف الاستراتيجي القومي الشامل . وهكذا تتنوع وتتدرج المعارك والانتصارات لتصب في النهاية في الهدف الكبير الاخير . ولهذا فان وحدة النضال الثوري العربي لا دولة الوحدة هي القوة الديناميكية المحركة ، والقانون الموضوعي والشرط الحاسم للانتصار .

هذا ما ينبغي ان نحشد كل طاقاتنا الفكرية والعملية من اجله بدلا من تبديدها في صراعات تجعل من الغايات وسائل ، فتحرم النضال العربي وسيلته الصحيحة ، وتسد باب الغاية المنشودة .

وفي مقال الاستاذ محيي الدين صبحي نصطدم بذات المفاهيم التي وجدناها في مقال الدكتور عصمت سيف الدولة . وان تميز مقال الاستاذ محيي الدين صبحي برؤيا موضوعية اكثر وضوحا وادراك واقعي اكثر استثارة لاحداث التاريخ العربي وملابساته العينية . ولكنه في الحقيقة ينتهي الى النتائج ذاتها . فالتحرر والتقدم الذي يتحقق في بلد عربي ، ان هو الا تكريس للانفصال ، وليس خطوة متقدمة في طريق الوحدة القومية . ولهذا فهو يرفض كذلك الدعوة الى دولة ديمقراطية في فلسطين ، ويتعجل العمل الشامل من اجل تحقيق الوحدة الشاملة ، فلا يجد امامه سبيلا الى ذلك الا بالدعوة الى الحركة الفوضوية ، الى تخريب الكيانات العربية القائمة وتحدي اجهزة الامن بها حتى تصبح الحياة في مدنها مستحيلة تماما ـ كما يقول ـ كما يفعل ابطال غزة من اسرائيل ! لا يفرض في هذا بين دول عربية متحررة متقدمة ، دول عربية اخرى متخلفة رجعية . دعوة في الحقيقة الى الفعل اليائس الذي لا يستفيد منه موضوعيا الا الاستعمار والصهيونية والرجعية . وذات النتائج المثالية المغامرة التي يصل اليها الدكتور عصمت سيف الدولة ، نتيجة للوثب الفكري فوق الحواجز الموضوعية، واتخاذ الغاية الاخيرة من النضال وسيلة اولى له .

فاذا انتقلنا بعد ذلك الى مقال الاستاذ مطاع صفدي كدنا نصل الى ذات المفهوم الفوضوي في الفعل الثوري وان اختلفت المقدمات .

والحقيقة انني استبشرت كثيرا بمدخل مقال الاستاذ مطاع صفدي فضلا عن عنوانه « نحو المنهج في الثورة الثقافية العربية » حسنا .. انه يمس صلب الموضوع . وهو يمهد له في مدخل مقاله تمهيدا جيدا. فيحدد تحديدا صحيحا معاني الثورة الثقافية وعناصرها واهدافها . ولكنه عندما يبدأ التطبيق على الثورة الثقافية العربية لا يلبث ان ينحرف بها الى لعبة الفاظ ! انه يتبنى النتائج التي انتهت اليها المدرسة الهيكلية او على حد تعبيره البنيوية . وهي مدرسة ستاتيكية ميكانيكية في تقديري تهدر الدلالة الديناميكية الحية للغة الانسانية . وما احب ان اقف عندها فليست موضوعنا الآن . المهم ان الاستاذ مطاع صفدي يتبنى نتائج هذه المدرسة لينتهي الى ان مشكلة الثورة الثقافية في بلادنا العربية هي مشكلة الفاظ . ان الفعالية الحضارية للامة العربية ـ كما يقول ـ قد امتصتها ثقافة الالفاظ ، حتى وقعت الثورات السياسية المعاصرة في وهم الاستبدال برموز الاوضاع وهي تستبدل في الوقت نفسه منظومة من الالفاظ بمنظومة اخرى . ولهذا فان ما يسود عالمنا هو اللفظة ـ القوة ، لا الفكرة ـ القوة ، واللفظة ـ القوة كما يقول تكرس عزلة المجتمع عن الاشياء ـ لا تغيير في عالمنا العربي الا استبدال منظومة الفاظ بمنظومة الفاظ اخرى . دون خلاف في المضمون العملي الحي لكلا المنظومتين ، مهما تناقضتا . ان الثورات العربية والثقافة العربية تستخدم الالفاظ وتحمل الاشياء ، ويقوم بينها وبين حقيقة التحرك التاريخي طبقة من الابفاظ ، يتجاهل عالم الاشياء . ـ ان ثورتنا هي ثورة في الوجود اللفظي وليست ثورة في الوجود الصيني . ما العمل اذن يا استاذ مطاع صفدي ؟

العمل ـ كما يقول ـ هو التخلي عن الدوران في عالم الثورات اللفظية ، فالالفاظ ـ كما يقول لا بوجد ، ولا تبني اعمالا ، العمل هو العودة الى سياق الممارسة ، فالوجود وحده هو الذي يمارس . وهكذا يبرز منهج الثورة الثقافية كما يرتئيها الاستاذ مطاع صفدي : كل ما تستطيعه الثورة الثقافية هو التبشير بوجود عالم الاشياء والبحث عن اساليب لتغييرها .

ولعلي اتفق ببساطة مع الاستاذ مطاع صفدي ان الفكر الثوري العربي يعاني من زحمة اللفاظ المجردة ذات الرطانات الثورية التي لا تكاد تشير الى حقيقة عينية حية ، ونكاد تبلبل النضال الثوري نفسه .

ولكن يعني هذا ان تتخلى عن الالفاظ ، والالفاظ كما تعلم هي حاملة المفاهيم والتصورات والقيم ، ام نصارع بالفكر والنضال العملي من اجل الوضوح الفكري العملي معا ! واتساءل : كيف تتحقق ثورة الاشياء بغير وضوح المفاهيم والتصورات التي تحملها الالفاظ ، وكيف تتحقق الممارسة بدون الفكر النظري تنتظمه التعابير اللفظية . كيف يتم التواصل الانساني ، والممارسة الثورية بغير منظومة فكرية واضحة التعابير ، محددة المفاهيم ، علمية التصورات ؟ ان الاستاذ مطاع صفدي يحررنا من عبودية اللفظ المجرد ليسلمنا الى فوضوية الشيء غير المحدد وعماء الممارسة العشوائية . انه ينقلنا من لعبة الفاظ الى لعبة مكعبات شيئية ! انه يتحدث كأنما العالم العربي يبدأ من الصفر فكرا ونضالا ، يتحدث كأنما لم تتبلور في العالم العربي مفاهيم وقيم تحملها الفاظ ما اعمق دلالتها ، واخصب مضامينها الحية . يتحدث كأنما لم تتحقق في العالم العربي منجزات تحمل كلمات التحرير والتأميم والتصنيع والنضال الثوري المسلح والتحول الاشتراكي ، والنضال ضد الاستعمار والصهيونية ، وعشرات وعشرات غيرها ، في فكرنا وادبنا ، وواقع حياتنا الثقافية اليومية .

وهناك بغير شك كلمات اخرى تجهض العمل الثوري العربي ، وتفقده الاستبصار الموضوعي الشديد . قضية الثورة الثقافية العربية ليست قضية الفاظ في جوهرها ، وليست قضية ممارسة فوضوية عمياء ، كما يعرض منهجها الاستاذ مطاع صفدي ، بل هي قضية وضوح فكري ونضال ثوري مسلح بهذا الوضوح الفكري .

انتقل بعد ذلك الى مقال الدكتور حسن حنفي ، فانتقل به في الحقيقة الى رؤيا غامرة واضحة موضوعية للحقيقة . حقيقة الثورة الثقافية العربية ، فواقعها ، متطلباتها .

لعل هذا المقال هو المقال الوحيد في عدد الآداب كله الذي لمس بعمق وشمول ازمة ثورتنا الثقافية في جوانبها المختلفة .

والدكتور حسن حنفي من طليعة مفكرينا الشبان الذين يسهمون بجدية ورصانة واصالة في تغذية فكرنا العربي المعاصر . قد اختلف معه في بعض تفاصيل مقاله ، ولكني لا املك التعرض للتفاصيل ، مكتفيا بملاحظتين .

اولا : يكاد الدكتور حسن حنفي يتورط في بعض المفاهيم العامة لفلسفة شبنجلر الحضارية ، وينعكس هذا في مفهوم شبه عنصري للحضارة الاوروبية . ان حرصنا على الاصالة ، وسعينا الى تعميقها في وجداننا ، لا يعني ان ننظر الى اوروبا هذه النظرة المجردة المغلقة ، التي

احسستها في مقاله والتي تكاد نستعيدها كلية ، ولا تكاد نتبين في داخلها فروقا جوهرية بين ثقافة متقدمة وثقافة رجعية متخلفة .

ثانيا : يكاد الدكتور حسن حنفي يتورط كذلك في مفهوم ميكانيكي حول نقل التراث الاوروبي ـ ولعل هذه الدعوة في ذاتها تتنافض مع موقفه التي عرضه من التراث الثقافي الاوروبي . انه يفصح بان ننقل من هذا التراث ما يتعلق بمرحلة تتلاءم والمرحلة التي تمر بها بلادنا العربية اليوم ، ويصفها بمرحلة النهضة . ولهذا فأصلح ما يصلح لنا من التراث الاوروبي هو تراث عصر النهضة ، تراث القرن الخامس عشر والتاسع عشر . اعتقد ـ ولعل الدكتور حسن حنفي يوافقني ـ ان تاريخ التطور الفكري في المجتمعات البشرية لا يتخذ هذا المسار الميكانيكي ، وما احوجنا في هذه المرحلة الحضارية من تاريخنا الى زبدة الفكر الحضاري الاوروبي في مراحله المختلفة القديمة والوسيطة والحديثة والمعاصرة .

واختتم حديثي عن هذه المجموعة من المقالات النظرية بالاشارة السريعة الى مقال الاستاذ جورج طرابيشي ، الذي يتعرض بمنطق علمي سديد ، واحساس عميق بالمسؤولية الثورية للابنية الفكرية المثالية والشطحات النظرية عند الدكتور عصمت سيف الدولة والاستاذ مطاع صفدي ثم الدكتور نديم البيطار ، فيفضح جذورها المعادية للفكر العلمي ، المتخلفة عن رؤية قوانين الواقع ، ومتناقضاته الحية ، وحركته الجماهيرية الموضوعية ، والمقال نموذج طيب للصراع الفكري المسلح بالرصانة والعمق والوعي المستنير المسؤول . وليس عندي ما اضيف عليه ، او الاحظه ، اللهم الا ان اتمنى مواصلة الاستاذ جورج طرابيشي لطريقه النقدي هذا لمختلف التراكيب المثالية والميتافيزيقية التي تبلبل جماهيرنا ومثقفينا ، وتعرقل طريق النضال الثوري . وما اقدره على ذلك .

انتقل بعد ذلك الى المجموعة الثانية من المقالات التي تتعلق بتراثنا القديم والديني . اولاها هي مقال الاستاذ حسين مروة . وثانيها مقال الدكتور محمد النويهي . اما مقال الاستاذ حسين مروة فرحلة فكرية بالغة العمق والجدية ، تعرض لمنهج علمي سديد في النظر الى تراثنا في الدين والفلسفة . يقف بحسم ضد دعاة القطيعة بين الثقافة العربية المعاصرة وبين تراثها الفكري . ويؤكد تأكيدا تاريخيا علميا ، اتصال هذا التراث ، واصالة ارتباطه بواقعه الاجتماعي ، فضلا عن جوهره العقلاني الديناميكي المتجدد .

وهذه الدراسة القيمة مدخل بالغ الخصوبة لاعادة كتابة تاريخنا الفكري عامة على نحو جديد ، يبرز اصالتنا ، ويفجر به في حياتنا الفكرية المعاصرة آفاقا جديدة من الابداع .

ولعل مقال الاستاذ حسين مروة كان كذلك مدخلا تاريخيا نظريا لمقال الدكتور محمد النويهي .

ومقال الدكتور النويهي في الحقيقة مساهمة ايجابية بالغة العمق والجدية والجسارة المسؤولة في الدعوة الى ثورة ثقافية حقيقية في مجال الفكر الديني عامة ، والتشريع الديني والاجتماعي بوجه خاص . انه يغوص في اعماق التراث الديني ، ليكشف جوهره الاصيل ، ويحدد الاساس الديناميكي الحي لروح التشريع الاسلامي ، ثم يطلق صرخته الثورية الرائعة : « كل النصوص الدينية ـ بلا استثناء ـ يجوز لنا ان نتجاوز حروفها في كل ما يتعلق بعلومنا ومعارفنا الدينوية واوضاعنا الاقتصادية ومعاملاتنا الحيوية وعلاقاتنا الاجتماعية ما دمنا نستهدف المثل الروحية العليا التي نصبه الدين لنا » وهو يعرض بالتفصيل لكثير من القضايا التشريعية محددا اوجه التجديد فيها بما يتلاءم واحتياجاتنا الثورية الجديدة ، ثم يرتفع ، بدعواه واجتهاده الواعي المسؤول الى مستوى رفيع حقا عندما يعرض في النهاية لقضية المرأة العربية ، ان هذا المقال في الحقيقة هو خطة ثورية جادة لعمل ما احوجنا اليه في انجاز ثورتنا الثقافية .

انتقل بعد هذا الى المجموعة الاخيرة من المقالات التي تعرض بالتقييم للادب العربي المعاصر في الرواية والقصة والشعر والمسرحية.

فأبدأ بمقال الاستاذ احسان عباس الذي يعرض فيه بالتحليل للادب ما بعد الهزيمة في القصة والرواية والشعر .

والمقال ـ شأن مقالات الاستاذ احسان عباس جميعا ـ تحليل موضوعي جاد ومواجهة واعية مسؤولة لتطور القيم الفنية والاجتماعية والانسانية عامة في هذا الادب . يميز فيه بين موقفين ، موقف الاكتئاب والاغتراب والضياع والهزيمة في مواجهة الهزيمة ، وموقف الرفض والصمود والمقاومة والتخطي للهزيمة . ويؤكد ظاهرة نامية في ادبنا المعاصر هي ازدياد التلاحم بين الفنان العربي والشعب ، واتجاه الادب الى الايجابية والواقعية .

كما يعرض لموقفين من التراث في هذا الادب موقف ركيك يرفض ويتعالى عليه في غمرة مشاعر الهزيمة وموقف مستنير يحتضنه ويمتد به امتدادا خلاقا في معركته المصيرية الراهنة .

والمقال ليس تحليلا نقديا فحسب ، بل يصدر كذلك عن موقف فكري ايجابي ، يدعو ـ دون ان يصرخ ـ ويحدد الطريق الصحيح .

واستكمل هذا المقال بمقال الاستاذ محمد دكروب عن شعر المقاومة. والمقال في الحقيقة تحليل نظري نقدي لتلك الدعوة الغريبة التي يدعو اليها الشاعر ادونيس الى ان تكون ثورة الشعر ، ثورة في الشعر ، في بنيته الداخلية ، لا ثورة المشاركة في تغيير الواقع الحي . والمقال كذلك دحض لهذا الانهام الغريب الذي يوجهه ادونيس الى شعر المقاومة بانه شعر غير ثوري . اما الثورة الوحيدة في عرف ادونيس فهي الثورة داخل الشعر . وما املك ان اضيف جديدا الى التحليل النقدي الرائع الذي قدمه الاستاذ محمد دكروب . حسبي ان اقول مخلصا ، ان هذه الثورة التي ينادي بها الشاعر ادونيس داخل الشعر ، والتي يمارسها فعلا في شعره ، هي غربة بالشعر عن الحياة والانسان ، والثورة . ان للشعر قوانينه الخاصة بغير شك، التي تختلف وتميز عن قوانين الواقع الحي ، ولكن الاختلاف والتمايز لا يعني الاستقلال والانفصال . ما قيمة التجديد في جماليات الشعر والفن ، بحيث يصبح عجزا عن التعبير عن الحياة والاضافة اليها ، والمشاركة في تجديدها وتغييرها . فليتجدد الشعر بقوانينه واساليبه ومناهجه ، في غير انقطاع عن الاتصال بالحياة ، والفعل الخلاق فيها . ما قيمة ان تتجدد كفى فتصبح اصابع عشرا مثلا متراكبة متداخلة . قد تصبح شكلا طريفا ، تعميقا مستحدث التركيب . ولكنه ان تكون ثورة في بنية الكف . لانها ستكون عجزا في الكف عن وظيفته الحية . عذرا فلا مقارنة بين الكف والشعر . ولكن الشعر على اية حال هي كف القلب البشري واداته الفنية في امتلاك الحقيقة الحية ، والاقتدار على الفعل الوجداني فيها . اما اشارة الاستاذ محمد دكروب في مدخل مقاله وفي نهايته الى رأي الاستاذ غالي شكري في ادب المقاومة ، فسوف يناقشه في مقال قادم ، فانا اعرف هذا الرأي الذي هو مجرد حذلقة مفتعلة لا تسعى الا الى صرف اهتماماتنا الفكرية عن كل ما هو جوهري وجاد واصيل .

واعود بعد ذلك الى مقال الاستاذ سامي خشبة عن الرواية العربية الحديثة . واعترف انني لا استطيع ان اناقشه مناقشة منصفة في تفاصيل آرائه . لاني ـ وهذا عيب اعترف به كذلك واعتذر عنه ـ لم اطلع بعد على كثير من الروايات العربية التي اشار اليها في مقاله ، ولكن من الناحية النهجية الخالصة ، اختلف معه مع تقديري للجهد الكبير العميق في مقاله ، فضلا عن خصوبة مقاله وما تثيره وتلهمه من افكار . اختلف معه في الاتهام الذي وجهه لبعض النقاد اليساريين بانهم اكتفوا في نقد الرواية العربية الحديثة بالوقوف عند هياكلها الخارجية الشكلية ، دون التعمق في تقييم دلالتها الاجتماعية او

الحضارية العامة .. ولا املك ان اضيف شيئا اكثر من هذه الاشارة العابرة واختلف معه في حكمه بالجزئية والسطحية على بعض الروايات لانها اكتفت ببعض الاحداث الجزئية في الواقع الحي دون استيعاب كل ابعاده .

ذلك ان تناول حدث جزئي قد يصبح في ذاته قوة كشف رمزي ايحائي لجماع حركة الواقع ان كان في هذا الحدث الجزئي دلالة جوهرية على هذا الواقع . وما اكثر الامثلة على ذلك . ثم اختلف معه اخيرا في احكامه الجائرة المتعسفة على ادب نجيب محفوظ بعد الثلاثية ، فليست رواية اولاد حارتنا رواية ميتافيزيقية على الاطلاق ، بل هي رواية اجتماعية ، بل دعوة اجتماعية كذلك ، رغم رموزها التاريخية العديدة . وروايانه التالية من اللص والكلاب حتى ثرثرة على النيل ، ليست مجرد تعليق سطحي على الواقع يتميز بالجزئية ، والعجز عن الاحاطة والشمول . انها تعبير عن جوهر مشاكلنا الاجتماعية في انحائها المختلفة . وما احب ان اضيف هنا الى ما سبق ان ذكرته بالتفصيل في دراسة قديمة عن المعمار الفني في ادب نجيب محفوظ ، وفي دراسة اخيرة عن قصصه ومسرحياته الاخيرة .

ان الرواية ، والعمل الفني عامة ، قد يلخص في موقف جزئي او حدث محدد عابر ، اعماقا كلية جوهرية في حركة مجتمع او حركة عصر . وهذا ما يحققه في مجتمعنا وعصرنا ادب نجيب محفوظ .

انتقل بعد ذلك الى مقال الاستاذ صبري حافظ عن الاقصوصة العربية . والمقال استعراض جيد وتحليل عميق للاقصوصة العربية ، وخاصة في مرحلتها فيما بعد الهزيمة . ولكن في الحقيقة اختلف معه في تحليله لها في المرحلة السابقة على الهزيمة . اذ يغلب على هذا التحليل طابع التعميم المطلق الجامد . فليس النموذج السائد في اقصوصة هذه المرحلة هو نموذج البطل المهزوم كما يقول الاستاذ صبري حافظ . اخشى ان يكون قد استلهم مرحلة الهزيمة ليفسر بها كل ما سبقها . ويجعل من الاقصوصة تنبؤا بالهزيمة وتحذيرا منها . هذا النموذج بغير شك ، ولكن هناك كذلك نماذج اخرى لا حصر لها ، تعبر عن مواقف ورؤى متعددة متنوعة . انه في الحقيقة يختصر بنموذج واحد ، كل الخصوبة التي كان يحتدم في هذه المرحلة من الابداع القصصي . تمنيت لو وقفت طويلا للتدليل على ما اقول ، ولكني اكتفي بهذه الاشارة العجلى ، التي لا يسمح لغيرها هذا المجال .

ولعلي اختلف كذلك مع الاستاذ صبري حافظ في تقسيمه لاقاصيص ما بعد الهزيمة الى اقاصيص تعبر عن ردود فعل واخرى تستلهم التاريخ وترمز به للدعوة الى التغيير وثالثة هي اقاصيص الفداء . هناك كذلك اقسام اخرى اشد تنوعا وخصوبة . ان الاقصوصة العربية المعاصرة تكاد تمثل ارقى مستوى من مستويات المشاركة في حياتنا الثقافية الراهنة . وهي كما يقول الاستاذ صبري حافظ بحق في نهاية مقاله اصبحت قادرة على « ان تضيف الى الضمير قدرة على الفهم والحسم والتغيير » .

وانتقل اخيرا الى مقال الاستاذ فؤاد دوارة عن المسرح العربي ، والمقال في الحقيقة دراسة غاية في الرصانة والموضوعية والجدية لمسرحنا العربي ، وهي استيعاب كامل او شبه كامل لحركة المسرح العربي وامتزاجه الخلاق بحركة الثورة التحريرية والاجتماعية والقومية منذ مراحلها الاولى حتى مرحلتها الاخيرة . ويشيع في المقال روح التقييم المنصف والتناول العميق ، والتوجيه الواعي المستنير .

يأتي بعد ذلك مقال الاستاذ محمد بركات عن مسرحية « اوديب » للكاتب المسرحي العربي علي سالم . والمقال عرض نقدي جيد . ومع تقديري واعجابي بالمقال ، فاني اختلف معه ، في حول تناول الاستاذ علي سالم لاسطورة اوديب ، مع اعجابي كذلك بمسرحيته . في تقديري ان الاستاذ علي سالم لم يحسن الاستفادة الكاملة بالاسطورة ، وانما اقتصر على جانب جزئي فيها . على حين ان موضوعه نفسه ، كان يحتمل الاستفادة الكاملة فيها ، بل لعل هذا ان يكون تنمية وتعميقا للموضوع . على ان الاستاذ علي سالم امل كبير لمسرحنا العربي المعاصر .

اختتم اخيرا مقالي هذا، بكلمة هي تحية في الحقيقة لمقال الاستاذ سالم جبران عن الفنان الثوري . ليس لي ما اضيفه الى المقال او الاحظه عليه ، لقد دافع دفاعا عميقا عن العلاقة الديناميكية بين ذاتية الفن وموضوعيته ، بين جماليته ومضمونه السياسي . اني اتخين هذه الفرصة لأحيي في مقاله وفي شخصه شعراءنا ونقادنا وكتابنا العرب المناضلين في فلسطين المحتلة .

وبهذا ينتهي هذا التعليق الذي قد طال ، والذي ارجو ان يكون مجرد اجتهاد سريع في صراحة هذا الموضوع الذي اتاحته لنا مجلة « الآداب » ، الثورة الثقافية العربية ، مع كل تقديري وشكري لمجلة الآداب مسؤولين عنها ، وكتابا فيها ، وقراء لها .

القاهرة

محمود امين العالم

في انتظار طائر الرعد

لشاعر المقاومة

سميح القاسم

٢٠٠ ق . ل

صدر حديثا

منشورات دار الآداب